ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .

وكان العرب دائمي الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن الحرب قد تكون سجالاً [1] بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة [2] والعزة .

وكل واحد منهم يحب في ذاته أن ينتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان ، فحرم القتال في الأشهر الحرم .

وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى كبرياءه ؛ لأنه فى أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه : لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .

وبمضيٍّ الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ٦٦

---

(١) الحرب بينهم سجال : أي : نصرتها بينهم متداولة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الأنفة : العزة والحمية والكرامة . [المعجم الوسيط] بتصرف .

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود ، بعد مُضيّ المدة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجّى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .

هذا الذل وتلك الفضيحة التى حاقت [1] بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إنَّ ربَّكَ هُوَ القَوِىُّ العَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شىء ، وفى هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ [2] (٦٧) ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذى نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه فى موضع آخر « الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

وسمّاه فى موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

---

(١) حاق به الشىء أو العذاب يحيق حيقاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأهْله .. (٤٣) ﴾ [فاطر] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ .. فأصْبحُوا في ديارهمْ جاثمين (٦٧) ﴾ [هود] كناية عن موتهم بحالتهم ، فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت]

وفى سورة الأعراف سمّاه «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة[1] تؤدى معنى الحدث الذى يَدْهَمُ[2] ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : «وأخذت الذين ظلموا الصيحة »؟ لماذا اختفت تاء التأنيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ ؟ [هود]

ونقول : إن الذى يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التأنيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود]

أى : مُلْقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) رجف يرجف رجفاً ورجفاناً : تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل] والرجفة : اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

(٢) دَهَمه أمر دهماً : فجأه وغشيه . ودهمه القوم : جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وأدهمه : ساءه وأرغمه . والدَّهْم : العدد الكثير . وجيش دَهْم : كثير . [المعجم الوسيط] .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا[1] أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ومادة «غَنِىَ»[2] .. «غنىً» ، أو «غَنَاء» كلها متساوية ؛ لأن الغَنَاء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغْنى عن شيء ، فالغَنَى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التى يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغَناء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[3] كَأَن لَّمْ تَغْنَ[4] بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

أى : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود] . [القاموس القويم] .

(٢) غنى يغنى غناء وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغنى . والغنى : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ .. ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٣) حصد الزرع يحصده حصداً وحصاداً : قطعه عند نضجه . ويستعمل الحصد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة . قال تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزرع المحصود ، أى : أهلكناهم . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود] . أى : منها باق ، ومنها هالك . [القاموس القويم] .

(٤) غنيت الدار بأهلها : عمرت بهم ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم ٢ / ٦١] .

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ..(٦٨)﴾ ، وهذه هى حيثية العذاب الذى نزل بهم.

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨)﴾ [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به.

وقول الحق سبحانه: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾ [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم.

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى[1] قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ[2] أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[3] (٦٩) ﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسَل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعثه إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسَلاً من الله.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي[4] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج]

واصطفاء الملائكة كرسل لتيسير التلقّى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه.

لذلك يأتى لنا الله جَلَّ عُلاَه بالرسل ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة.

---

(١) البُشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخبر السار . والبِشْر : مصدر بمعنى البشارة والبشرى ، ويطلق كل منها على الخبر السار . وبشَّره : أخبره بما يسره . قال تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) ﴾ [الحجر].

(٢) لبث : أقام واستقر . وما لبث أن فعل كذا : ما قعد وما توانى ، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان . وقوله تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود] أى : أسرع فأتى به ، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف . [القاموس القويم].

(٣) حنذ اللحم يحنذه حنذاً : شواه على الحجارة ، فهو حنيذ أى : مشوى . قال تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود] ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم].

(٤) اصطفاه : اختاره وآثره وفضَّله . قال تعالى : ﴿ .. يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] أى : اختارك وفضَّلك . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج] أى : يختار الأفضل منهم لرسالاته . [القاموس القويم] بتصرف.

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ، ولا كل البشر بقادرين على التلقى عن الله أو عن الملائكة.

وهذه الحلقات فى الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك فى حياتهم.

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم بمتاع البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصاب نحن إن اصطدمنا بما هو أقوى منا.

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوى .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتى بمصطفى من الملائكة ، يتلقى عن الحق سبحانه ويبلغ المَلَكُ من هؤلاء الرسولَ المصطفى من البشر.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً [1] أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ [2] أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً [3] فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) الوحى: يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به.
قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ .. (٤٥) ﴾ [الأنبياء] أى: بالقرآن الذى أوحاه الله إلىَّ. ويطلق الوحى على الملك الذى أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: إلهاماً من الله ، وقذفاً وإلقاء فى قلب الرسول فى سرعة وخفاء. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٢) ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله تعالى. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله ما أمر الله به [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. (٦٩) ﴾ [هود]

والبشرى هى الإخبار بشىء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار الذى يعنى الإخبار بشىء محزن قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، فمن أدب الدخول إلى أى مكان أن نسلِّم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا [1] وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

ولذلك يأتى الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلَامًا .. (٦٩) ﴾ [هود]

وجاء سبحانه بردِّ إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ سَلَامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم : ﴿ سَلَامًا ﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿ سَلَامٌ ﴾ بالرفع ؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) استأنس : ذهب توحشه ، واستأنس به وإليه ، والهمزة والسين والتاء للطلب فى الغالب . فقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور] أى : حتى تطلبوا الأنس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأنس وتعلموه [القاموس القويم ١ / ٣٧] .

﴿ .. فَمَا لَبِثَ (١) أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

والعجل هو ولد البقر.

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن، لا بقصد التكرار، ولكن لأن كل لقطة في أي موضع هي لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها، فإذا جُمعَتْ اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكاملٍ.

وعلى سبيل المثال: يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التي أرادها لإبراهيم، فيقول سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ (٢) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ (٣) قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا (٤) قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ (٥) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا (٦) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام]

---

(١) ما لبث أن جاء: أي: أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيوفه، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذي اتصف به إبراهيم عليه السلام. [القاموس القويم] بتصرف.

(٢) جَنَّ الشيء، يجنُّه جنّاً: ستره، ويتضمن الفعل معنى كلمة «أظلم» لأن الظلام يستر كل شيء. وجَنَّ الليل: أظلم. [القاموس القويم].

(٣) أفل: غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن].

(٤) بازغاً: طالعاً من الأفق منتشر الضوء. [كلمات القرآن].

(٥) فطر الشيء: شقه. وفطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم فهو فاطر أي ابتدأ خلق السموات والأرض. [القاموس القويم ٢/ ٨٤].

(٦) حنيفاً: مائلاً عن الباطل، مستقيماً على الحق. [لسان العرب].

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه فى موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام فخاطب عمه باحترام لمكانته التى تساوى منزلة الأب.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعى مع جمال العرض .

فأصرَّ العَمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام:

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم فى ربه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ [1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة [2] فى القول ناتجة عن عجز فى التعبير ، فليس

---

(١) حاجه : نازعه الحجة ، فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ؛ ليغلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ .. (٨٠) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم ١/ ١٤٣].

(٢) السفسطة : المغالطة والتضليل بغرض إفحام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ..(٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتى فى موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء]

وفى هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنبياء]

هذه هى التربية اليقينية [١] التى أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصَّل إلى عبادة مَنْ خلَقه وخلَق الكون ، وهو الصانع الذى يضع قانون صيانة ما يصنع سبحانه وتعالى.

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

فلم يقل: «الذى خلقنى يهدينى» لأن هذه دعوى؛ ستُدَّعى ، وسيضع الناس قوانين لأنفسهم ، فبيَّن الحق سبحانه أن الذى خلَق هو الذى يَهْدِى.

وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق خالقهم فيه ، لكن الأمر الذى لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله:

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخَلْق يأتى به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن فى الأمر الآخر يأتى بتأكيد الضمير كقوله:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فقد يقال: «إن الطبيب هو الذى يشفينى» ، ولكن ذلك غير حقيقى؛ لأن الله سبحانه هو الذى يضع العلم ، وهو الذى خلق الداء وخلق الدواء [٢].

---

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذى لا شك فيه ، ويقال خير يقين لا شك فيه ، ويكفى به عن الموت ؛ لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر] أى : الموت وقال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل] وأيقن الأمر وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [القاموس القويم ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢].

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه فى سننه (٣٤٣٩).

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ[1] مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتى لتأكيد معنى من معانى الإيمان تأتى معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام، وإذا جُمعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص، فذلك لتثبيت فؤاده ﷺ:

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن النبى ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث، فيذكِّره الله سبحانه بما حدث للرسل عليهم السلام ويأتى باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ .. قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ[2] (٥٢) ﴾ [الحجر]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿ فَأَوْجَسَ[3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) ﴾ [الذاريات]

---

(١) القواعد: جمع قاعدة، وقاعدة البناء: أساسه الذى يقوم عليه. [القاموس القويم ٢/ ١٢٧].

(٢) وجل يوجل: فزع وخاف. قال تعالى: ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. (٥٣) ﴾ [الحجر] أى: لا تفزع ولا تخف، وهو وجل، أى: خائف. وقال تعالى: ﴿ .. قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال].

(٣) أوجس فى نفسه: أضمر الخوف فى نفسه. قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى: أحس الفزع والخوف. [القاموس القويم].

أى: أحس فى نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجيد [١] ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس فى نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام.

والشرع لا يتدخل فى الإدراك أو المواجيد ، ولكنه يتدخل فى النزوع ، إلا فى أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال فى المرأة.

لذلك أمر الشرع بغض البصر [٢] ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفورى؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك.

وهنا بيَّن الحق مواجيد إبراهيم عليه السلام حين قال:

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ .. (٧٠) ﴾ [هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال:

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت.

وقال الحق سبحانه:

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن [٣] جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وهو: العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة.

(١) المواجيد: جمع موجدة ، وهى ما يحس به القلب ويجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها.

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور].

(٣) أن: بمعنى حتى. قاله كبراء النحويين. حكاه القاضى ابن العربى. والمعنى: أى: ما أبطأ عن مجيئه بعجل. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٢).

ومثل ذلك يحدث فى البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمُّونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء.

أو أن كلمة: ﴿ .. بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

أى: ينزل منه الدهن بعد الشواء.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هى محبة الضيوف وإكرامهم.

ومن عادة الكرام أن يُعجِّلوا بإكرام الضيف[1]، وتقديم الطعام له، والكريم هو من يفعل ذلك؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام، فإن كان الضيف جائعاً؛ أكل، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك.

ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى:

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ[2] وَأَوْجَسَ[3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾

(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧).

(٢) نكره: استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به. [القاموس القويم] تقول: نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته. راجع القرطبى (٤/ ٣٣٨٤).

(٣) وجس وأوجس: فزع. وأوجس فى نفسه: أضمر الخوف فى نفسه. وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧٠) ﴾ [هود] أى: أحس الفزع والخوف. وقال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه]. أى: أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة. [القاموس القويم].

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدَّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بيَّن ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ [1] (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) ﴾ [الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ .. (٨١) ﴾ [هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ .. لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن المَلَك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكَّل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

---

(١) القانطون : الذين انقطع أملهم فى الخير أو يئسوا منه . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معدوم الأمان . [القاموس القويم] .

ألم يَقُلْ رسول الله ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تفلّت [1] البارحة ليقطع عليَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

فرددته خاسئاً » [2] .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجنى هى التى تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) تفلت : أى : تعرض لى فلتة أى : بغتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة ﴿نكرهم﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة فى القرآن [1].

والشاعر يقول:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت [2] ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم، وأوجس فى نفسه خيفة، فلاحظوا ذلك، وقالوا:

﴿.. لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴿٧٠﴾﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت له: ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك [3] هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّت من فراستها [4]، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة.

---

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ..﴿٧٠﴾﴾ [هود]. وقال تعالى عن سليمان: ﴿قال نكروا لها عرشها ..﴿٤١﴾﴾ [النمل]. أما أنكر، فقد قال تعالى: ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ﴿٨١﴾﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه ..﴿٣٦﴾﴾ [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴿٨٣﴾﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينيك وأنكرت لما تراه بقلبك. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٤).

(٣) الكنف والكنفة: ناحية الشيء. وكنف الرجلُ الرجلَ جعله فى كنفه أى: فى حفظه وإعانته. وكنفت الرجل: حطته وصنته. [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسة: الفطنة فى النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به. والتفرس: أن تتوسم أمراً ما فى شخص ما فيكون كما توسمت، وهذا يكون بأحد أمرين:
١- ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.
٢- ما يتعلم بالدلائل والتجارب فتعرف بها أحوال الناس.
[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً (١) عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَامْرَأَتُهُ (٢) قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف (٣)، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ،وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً ، وبشَّرتها الملائكة بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتى البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان (٤) إليه ، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

---

(١) ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤) ﴾ [الذاريات] أى : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . وسوَّم على القوم : أغار عليهم فعاث فيهم بالإفساد والإهلاك . قال تعالى : ﴿ .. يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ [آل عمران] أى : معلمى أنفسهم وخيلهم بعلامات ، أو مغيرين على الكفار . وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. (١٤) ﴾[آل عمران] أى : المرسلة للرعى ، أو المعلمة بعلامات . وقوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم] .

(٢) هى : سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه ، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة ، بعد أن ولدت هاجر - لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام .

(٣) عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدى أتى رسول الله ﷺ فدعاه فى عرسه فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهى العروس . قال : تدرون ما سقت رسول الله ﷺ ؟ أنقعت تمرات من الليلة فى تور » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٨) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢) .

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً : مال وأحب . قال تعالى : ﴿ .. وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] . أصبو : أميل . وصبا إلى الشىء : حَنَّ واشتاق إليه . [القاموس القويم] .

عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً [1] . وفى هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿ والله جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً [2] .. (٧٢) ﴾ [النحل]

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالت البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأى أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هى الغلام ، وكان ذلك حُلماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة [3] .

---

(١) قال مجاهد : كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا . أما إبراهيم فقيل : كان ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة سنة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٨) .

(٢) حفدة : أولاد الأولاد . والحافد : العون والخادم ، وولد الولد ، جمعه : حَفَدٌ ، وحُفَّدٌ ، وحَفَدةٌ . وحفد فى عمله : خف ونشط وأسرع فيه فهو حافد ، وهو حفيد ، وسمى العون أو الخادم أو ولد الولد حافداً لنشاطه وخفته فى العون والخدمة . [القاموس القويم ١/ ١٦١] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه عن ذلك فى سورة الذاريات : ﴿ .. وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ [الذاريات] . صكُّ الوجه : اللطم تعجباً وهو كناية عن الدهشة والتعجب [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه:

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى[١] شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

والشيء العجيب هو الذى يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النواميس[٢] وخالق النواميس، الذى هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول فى موضع آخر:

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التى قالت:

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

وأيضاً سُمِّى النخل بالبعل، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه، وإنما يكتفى النخل بما يمتصه من الأرض، وما ينزل له من مطر السماء[٣].

---

(١) البعل: الزوج والزوجة، فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث، وجمع البعل: بعولة. قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى: وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى، وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد. [القاموس القويم ١/ ٧٦].

سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها. والمباعلة: المباشرة. والبعال: النكاح. تبعلت المرأة: أطاعت بعلها. وتبعلت له: تزينت. وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له. [لسان العرب].

(٢) النواميس: القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون.

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة: ب ع ل): استبعل الموضع والنخل: صار بعلاً راسخ العروق فى الماء مستغنياً عن السقى وعن إجراء الماء فى نهر أو عاثور إليه. (العاثور: هو البئر)